

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على نبيه الكريم
موسيقى الحضارة الاسلامية

تتسم موسيقى الحضارة الاسلامية بطابع خاص يميزها عن موسيقى مختلف الحضارات عبر التاريخ الانساني لانها عصاره ما انتجته جميع الشعوب والدول التي نالها شرف اعتناق الاسلام دينا لان الاسلام متفتح على جميع الحضارات والفنون بشرط واحد وهو ان لا يكرر لها ارتباط بالوثيقة وان لا تمس باي صورة من الصور اركان الدين الاسلامي الحنيف ومن ابرزها وحدانية الخالق عز وجل .

وقد أقر الذوق السليم والصوت الحسن، ومن أبرز الشواهد على ذلك قوله تعالى : " إن أنكر الأصوات لصوت الحمير" وما روى عن عائشة رضي الله عنها : أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها في أيام منى وعندها جرايتان تدفان وتضربان ، والنبي صلى الله عليه وسلم متغش بثوبه، فانتهرهما أبو بكر فكشف النبي عن وجهه وقال : دعهما يا أبا بكر فإنهما أيام عيد.

وكذلك ما رواه الإمام البخاري عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه من كونه خرج ذات ليلة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهما سيدنا أبو بكر رضي الله عنه فإذا رجل يصلي في المسجد فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع قراءته وقال فيه " من سره أن يقرأ القرآن كما أنزل فليقره على قراءة ابن أم عبد " ثم جلس الرجل يدعو فجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يقول له سل تعطه فقال سيدنا عمر " فقلت والله لا غدون إليه فلأبشره " قال فغدوت إليه لأبشره فوجدت أبا بكر قد سبقني فبشره فوالله ما سبقته إلى خير قط إلا سبقني إليه ، وابن أم عبد هو سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وقد اشتهر بجمال الصوت .

وفي مناسبة أخرى قال سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه " قال لي النبي صلى الله عليه وسلم أقرأ علي قلت يارسول الله أقر عليك وعليك نزل " قال نعم قفرت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية (فكيف إذ جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال حسبك الآن فلتقت إليه فإذا عيناه تذرفان .

واشتهر أيضا من الصحابة بجمال الصوت في تلاوة القرآن الكريم سيدنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه وقد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على (رواية الإمام البخاري) "يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود" والمعروف ان المزامير كانت معجزات سيدنا داود عليه السلام فيما توديه من اصوات موسيقية ثقافية عند الفجر للقيام الى الصلاة .

وقد أقر الرسول الاعظم عليه الصلاة والسلام القيام بالغناء والموسيقى بمناسبة الافراح من خلال ما روته ام المؤمنين السيد عائشة رضي الله عنها ان والدها سيدنا ابا بكر رضي الله عنه دخل عليه في ايام منى وعندها جاريتان تدفغان وتضران والنبي صلى الله عليه وسلم متغش بثوبه فانتهرهما سيدنا أبو بكر فكشف النبي عن وجهه وقال "دعهما يا ابا بكر فانها ايام عيد" من خلال ما تقدم تبرز لنا مكانة الموسيقى والغناء في الاسلام ومن البداية ان يكون تناولها مشروطا بان لا يلهينا عن العبادة او عن العمل الضروري للعيش وعن الجهاد في سبيل اعلاء كلمة الله .

والاسلام ظهر في جزيرة العرب التي كانت لها قدم راسخة في الغناء، فقد كانت الخنساء شاعرة الرثاء تغني مرثيها وتغني الاعشى ميمون بن قيس متغزلا ف (هريره) احدى مغنيات الحيرة في ايام النعمان وكان للحادي دور اساسي في رحلات التجارالعرب وخاصة رحلتي الشتاء والصيف اللتين تعرض لهما القرآن الكريم في سورة "قريش" اذا على نغمات الاحدى تقطع الابل المفاوز غير شاعرة بثقل حملاتها .

واعتنت اكابر الشخصيات الاسلامية بالمغنين فهذه السيدة أروى ام الخليفة سيدنا عثمان بن عفان ترعى المغني أبا عبد الله الذائب المشهد ب"طويس" باعتباره أول مغن يضرع في الاسلام وأول من طعم الغناء العربي وهذه السيدة سكيئة بنت سيدنا الحسين رضي الله عنه تقيم حفل تكريم للمغني العجوز جنين الحيرى رغم تشابهه بالديانة المسيحية بالمدينة المنورة حضر جمع غفير من الفنانين والابدباء والاشراف وامتلاء سقف البيت بالنظارة المعجبين بما تسبب في هذه البيت ومات المطرب المحتفل به عن سن تفوق المائة عام وهذا سيدنا عبد الله بن جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه يستمع الى المغني ابي جعفر سائب بن يسار المشهور "بسائب خاثر" فيتأثر به ويدخله في خدمته والمعروف (عن كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني) ان هذا المغني هو اول من يصطحب بالعود في غنائه وأول استعمل الالحن الفارسية في الشعر العربي وهو الذي فتح المجال للتلحين الفني باستعماله لايقاع الثقيل الأول ونظرا لما عرف به هذا العصر من دعاية ضد الاشتغال بالغناء قدم سيدنا عبد الله بن جعفر (سائب خاثر) الى سيدنا معاوية ابن ابي سفيان رضي الله عنه باعتباره من الشعراء المحسنين لشعرهم فاجازه بما قدمه من غناء ورغى سيدنا عبد الله بن جعفر ايضا المطربة "عزة الميلاء" التي تعتبر امتدادا للمطربات القديمات "رائقة وخوله " وسرين" التي اهداها "المقوقس " حاكم مصر للرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم فزوجها لسيدنا حسان بن ثابت وقد كانت عزة الميلاء هذه تقيم حفلا اسبوعيا في بيتها ربت به الجمهور على حسن الاستماع وذكر طويس في هذا الشأن بان الحضور كانوا في حفلاتها وكان على رؤوسهم الطير وقد كان هاجوز يضرب كل مشير بالعصا مثلما كان الشأن في مجلس افلاطون باليونان .

وقد شهد لها سيدنا حسان بن ثابت بقوله : " ان عزفها يذكره بما كان يسمعه عند الغساسنة في الجاهلية كما شهد لها طويس حيث قال انها سيدة من غنى من النساء .

وحاول المتمزتون النيل من مكانتها لدى سيدنا سعيد بن العاص والي المدينة فوقف لها سيدنا عبد الله بن جعفر سدا منيعا لدى هذا الوالي واقنعه بانها مثال الاخلاق وانها تغذي الاجيال لفنها البرئ الرفيع .

ومن العناصر التي بدأت التطعيم بين الموسيقى الفارسية والعربية "ابو عثمان سعيد بن مسجح " حيث استمع هو ايضا الى غناء العمل الفرس وهم يبنون المسجد الحرام بمكة المكرمة ويروى ان مولاه سمعه يغني بشعر ابن الرقاع فيما نهايته :

لولا الحياء وان رأسي قد عتا فيه المشيب لرزت ام القاسم بلحن غربي فسأله عنه فأجابه بأنه استمع الى اللحن من العملة الفرس فصاغه على الشعر العربي فاعتقله لمجهوده الفني ويروي كتاب الاغاني ان مبلغ لعلم الخليفة الموي عبد الملك بن مروان ان فتیان قريش تعلقوا بهذا المغني وانفقوا عليه امالهم فامر عاملة "دحمان الاشقر بمصدر أمواله وبنقية .

فانتقل بان مسجح الى الشام وغنى لدى اشرافها حتى أوصلها احدهم الى الخليفة فسأله هل تغني غناء الركبان ففعل ثم هل تجدي الغناء المنقن فاداه فاعجب به وقال له :

من انت فاجابه "ان المظلوم المقبض ماله ، المنفى عن وطنه سعيد ابن مسجح فتبسم الخليفة وقال " قد وضع عذر فتیان قريش في ان ينفقوا عليك اموالهم وعفا عنه وارجع له ماله وواصل عطاءه وعاش في ارغد عيش الى ان مات سنة 96 هـ 715 م في خلافة الوليد بن عبد الملك .

وهذا فنان آخر "سلم بن محرز " احد تلاميذ عزة الميلاء وابن مسجح يسافر الى فارس ويتعلم غناءها ثم يسافر الى الشام ويتعلم غناء الروم ويمزج هذين المدرستين مع مدرسته الاصلية ليكون من ذلك منهجه الخاص به ويكون او مبتكر لغناء الرمل فينقله عنه المغني الفارسي "سلمك ويضع عليه كلمات فارسية ويؤديه في بلاده .

ويعتبر ابن محرز أول من غنى بزوج من الشعر واقتدى به اغلب من شجاء بعده من المغنين في مختلف البلاد الاسلامية ويقول في ذلك ان البيت الواحد لم يكن به اللحن " وقد تولد عن طريقته هذه "الدوبيت " في المشرق وطالبيتان" في المغرب وأبيات الدولة في تونس .

ولد في السنة الثانية للهجرة مغن تركي ممتاز هو ابو يحيى عبيد الله بن سرج وتعلم الموسيقى بالمدينة المنورة على طويس وابن مسجح وحضر حفلات عزة الميلاء وعلى نجمة في سن الاربعين واختص بالغناء المعروف بالنواح ونال شرف الانتماء الى نادي السيدة سكية بنت سيدنا الحسين رضي الله عنه حيى صار من ابرز عمدا الموسيقى حيث يقال : اصل الغناء مكابن ابن سريج وابن محرز ومدنيان معبد ومالك .

وبدا تدوين الغناء والكتابة عن حياة النانيين وعن غنائهم والاشعار التي يتغنون بها في العصر الاموي بواسطة يونس بن سليمان بن كرد بن شهريار المعروف بتونس الكاتب الذي يدل اسمه عن نسبه الغير عربية وقد اشتهر بحسن الغناء وكثرة الحفظ وجيد الشعر وهو اول من الف كتابا في الاغاني اعتمده كل من أتى بعده من الفنانين .وقد كان يتعاطى الغناء هواية حيث كان من اعيان التجار وبينما كان في الشام مع جمع من زملاءه في عمل بلغ خبره ولي العهد الوليد بن يزيد فدعاه واقام عنده ثلاثة أيام اهداه بعدها ثلاثة الاف دينار وماستخلف دعاه فأقام عنده حتى قتل . ولما آل الامر الى الخلفاء العباسيين زادت مكانة الموسيقى والغناء ارتفاعا حيث تعاطها الخلفاء ولامراء وتطور البحث العلمي والاختراعات في هذا الحقل وبرز عدد هام من المغنين والملحنين والعلماء منهم الخليفة ابراهيم بن المهدي اخو الخليفة هارون الرشيد وقد عمل على ترك القيود التقليدية وسمح لنفسه بتعاطي اشكال ومقامات من ابتكاره بفضل ما تعلمه عن أمه (شكله) ابنة ملك طبرستان وقد كان يقول عن منهجه الجديد أنا ملك وابن ملك اغنى كما اشتهي وعلى مالتذ "مكونا بذلك مدرسة للمجددين .

والمعروف ان ابراهيم بن المهدي اغتتم فرصة الخلاف بين اشياح ابن اخيه هارون الرشيد (الامين والمأمون) ليستأثر بالخلافة لنفسه وقد دامت له عامين (202-204 هـ 817-819 م) تحمل فيها من الهجاء الوانا من ذلك قول دعبل الشاعر :

ان كان ابراهيم مضطلعا بها(1) فلتصلحن من بعده لمخارق (2)
ولتصلحن من بعد ذلك لزلزل (3)ولتصلحن من بعده للمارق

مكانة العلوم الموسيقية في الحضارة الاسلامية :

لقد احتلت العلوم الموسيقية مكانة مرموقة في الحضارة الاسلامية واعتنى بها عدد كبير من العلماء المسلمين بازاء عنايتهم بالرياضيات والطب والبيطرة والفلسفة والفلك نذكر فيما يلي عدد من مشاهيرهم :

فيلسوف العرب أبو يوسف يعقوب ابن اسحاق الكندي (185-252هـ 801-866م) له عدة تأليف شارك في تحقيق بعضها الاستاذ زكرياء يوسف ومجدي العقيلي ومحمود أحمد الحفني ويوسف ومجدي العقيلي ومحمود احمد الحفني ويوسف شوقي بين بغداد ودمشق والقاهرة نذكر منها :

- 2- رسالة ترتيب النغم الدالة على طبائع الاشخاص وتشابه التأليف
 - 3- رسالة في مدخل الى صناعة الموسيقى
 - 4 - رسالة في الإيقاع
 - 5- رسالة في اخبار عن صناعة التأليف
 - 6- رسالة في صناعة الشعر
 - 7- رسالة في اخبار على صناعة الموسيقى
 - 8 - كتبا ترتيب النغم
 - 9- مختصر الموسيقى في تأليفا النغم وصناعة العود
 - 10- رسالة في اجزاء خبرية في الموسيقى
- وقد ابرزنا ما احتوت عليه من ايقاعات في كتابنا الذي عنوانه "الموسيقى العربية تاريخها وأدبها " نشر الدرا التونسية للنشر
- ابو احمد يحيى بن علي بن منصور المشهور بابن المنجم (241-300هـ 855-812م)
وقد اشتهر له كتاب النغم
- ابو نصر محمد بن طرخان المعروف بالفارابي (925-339هـ 870-950م) من مواليد مدينة فارس باوزبكستان ومن اشهر كتبه :
- 1- الموسيقى الكبير وقد حققه الاستاذ غطاس خشبية بالقاهرة
 - 2- احصاء الايقاع كتاب النقرة
 - 3- الكلام في الموسيقى
- وقد كان بازاء علمه بارعا علنآلة العود التي دون قواعد عزفها في كتبه أبو علي الحسن بن عبد الله بن سينا (370-438هـ 980-1037م) من مواليد مدينة (افشده) بجوار بخاري باوزبكستان ومن كتبه في العلوم الموسيقية :
- 1- كتاب الشفاء المحفوظ بمكتبة السلمانية باسطنبول وقد اطلعت عليه مذيلا بخطة
 - 2- كتاب النجاة وفيه فصل في الموسيقى
 - 3- دانش نامه - الفه بالفرسية لعلاء الدولة اثناء اقامته باصفهان
 - 4- رسالة في تقاسيم الحكمة وبها فصل في الموسيقى
- هـ - ابو منصور الحسن بن محمد بن زيله الاصفهاني وقد اشتهر من كتبه (الكافي في الموسيقى) حققه وطبعه الاستاذ زكريا يوسف سنة 1964 ببغداد
- و- عبد المؤمن بن يوسف بن فاخر الارموي المعروف بصفي الدين الارموي (613-693 1216-1284م) غنى لآخر خلفاء بني العباس "المستعصم بالله وحضر سقوط بغداد سنة 656 هـ 1258 م كما غنى لدى الحاكم الجديد (هولاكو) ومن اشهر كتبه :

- 1- كتاب الادوار وقد ترجم للتركية والفارسية والفرنسية والانكليزية واعتمدت عليه اغلب الكتب المؤلفة بعده وقد حققه ونشره الحاج هاشم الرجب ببغداد مؤخرًا
- 2- الرسالة الشرفية وقد ألفها لتلميذه شرف الدين الجويني واخيه بهاء الدين ذ- ابو جعفر نصر الدين بن محمد الطوسي (597-672 هـ - 1201-1273 له الاستاذ زكرياء يوسف ما تبقى من رسالته في علم الموسيقى .
- 2- أبو الفضائل كمال الدين عبد القادر المراغي (754 - 838 هـ 1353-1434م) من مواليد اذربيجان ومن اشهر كتبه :

1- جامع الالخان المؤلف بالفارسية

2- كتاب الموسيقى

3- زبدة الادوار

4- شرح لكتاب الادوار للارموي

5- كنز الالخان ف علم الادوار

وينسب له تلحين موشح مشهور حتى الآن في أغلب البلاد العربية مطلعته احسن شوقا الى ديار رأيت فيها جمال سلمى ومن احفاده عبد العزيز المراغي الذي كان موسيقيا بارعا وله رسالة (نقاوة الادوار) في الموسيقى كتبها للسلطان العثمان سليما القانوني (926-974 هـ 1278-1349م) الذي له رسالة عنوانها : فائدة في تولد الانغام بعضها عن بعض وترتيبها على البروج وهي لازالت مخطوطة ومحفوظة بدار الكتب المصرية برقم 50 فنون جميلة.

وعلى مستوى الممارسة الفنية فقد بنت الحضارة وحدة صفاء بين جميع الاقطار التي اعتنقت شعوبها الدين الاسلامي الحنيف كليا او جزئيا او دخلت ضمن سلطة الخلافة الاسلامية في احدى فترات تاريخها مثل بعض دول البلقان او اروبا الوسطى وكانت هذه الوحدة مبينة بصورة جعلت جميع المحولات التي قام بها بعض المسؤولين من ذوي النزعات العرقية تتحطم عند اعابها لتبقى شامخة دامة مدى الدهر بحول الله .

وتبرز هذه الوحدة على مستوى كلمات الغناء والمقامات والايقاعات والاشكال الموسيقية وحتى الآلات التي تؤدي بها الموسيقى وتصاحب الغناء وكذلك دور الطرق الصوفية في الحفاظ على التراث الغنائي باعتباره جزءا من ثقافة الشعوب الاسلامية التي توحدتها رغم اختلاف لغتها احيانا

ففي متسوى كلمات الاغاني نلاحظ وجود كثير من الموشحات والزجال قد اختلطت فيها اللغات العربية والتركية والفارسية مثل البيت الاخير من الوشح المشهور بمصر والشام وتونس وهو :

غمازك يجرحني خبي حنجرك

عزتلو سلطانم الله ينصرك

وكذلك الموشح الآخر الشائع بين تونس والجماهيرية الليبية وبه

يا غزالا بلسان عربي ولسان الفرس (أيادوستمن)

في أيضا عربية مثل " ياليل" وما اشتق منها مثل ياللي وبالي "واصلها " المستعملة في العربية جوابا للتحقيق ، وتركية مثل "افندم" وجانم " وامان "فارسية" مثل "يادوست"وفرياد من " وبالنسبة للمقامات فهي تتميز بالابعاد التي توجد بين درجاتها والتي تنتوع الى بعد كامل ونصفه وربعه وحتى دون ذلك بما يدل على دقة سمع الشعوب الممارسة لها ورقة احساسهم وهذه المقامات كانت محل دراسة كبار الباحثين الاسلاميين الذين ذكرنا اسماء بعضهم آنفا وقد جعلو اسماءها عربية او فارسية او تركية وهي متداولة كذلك حتى الآن في جميع الاقطار التي نالها شرف الاتصال بالحضارة الاسلامية ولو ابتعدت عنها فيما بعد مثل "اليونان" ومن هذه المقامات : عراق وجاز وحسين ورميل وذيل (عربية)

واصفهان بسته نكار وجهاركاه وسيكاه وشاهناز (فارسية)

وبوسلك وكردان وقار جغار (تركية وتسمى درجات السلم في جميع تلكم البلدان بما فيها العربية طبعا باسماء فارسية حتى الآن وهي حسب الترتيب ابتداء من الدرجة الاولى :يكاه -دوكاه - ساكاه -جهاركاه بنجكاه -ششكاه -هفتكاه

وبالنسبة للايقاعات فقد كانت هي الاخرى محل دراسة جهايزة العلماء ابتداء من الخليل بن احمد الفراهيدي الذي ربط الايقاعات الموسيقية بالتي للشعر العربي ثم ابو يوسف يعقوب ابن اسحاق الكندي الذي الف فيها رسالته (جزء خبرية في الموسيقى) المحفوظة الآن بدار الكتب العامة ببرلين تحت عدد 5503 .

وقد شرحنا ما اشتملت عليه من ايقاعات في فصل "أصول الايقاعات والمقامات العربية " من كتابنا " الموسيقى العربية تاريخها وآدابها " .

ويتناول ابو نصر الفراهيدي الايقاع في كتابه "الموسيقى الكبير" ويعرفه بانه النقلة على

النغم في ازمة محدودة المقادير والنسب كما تناوله بعده الرئيس ابن سينا في كتابه "النجاة " الذي يقول فيه : الايقاع كل فقرة ينتقل عليها الى نقرة اخرى فاما ان تنقل في مدة لا تمحى في مثلها عن الخيال صوري الاولى حتى تكوّن في الخيال كالمتموافيين معا واما الا يكونا والايقاع

انما يؤلف من نقرات بينها مدد على القسم الاول

ويأتي بعدهم صفي الدين الارموي في القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي فيقول الايقاع هو جماعية نقرات بينها ازمة محدودة المقادير لها ادوار متساويات الكمية على أوضاع مخصوصة .

ونجد في الايقاعات المتداولة حديثا ما هو مرتبط ببعض التفعيلات من الشعر العربي مثل : (مفاعلتن) من "الوافر " وهي تقل بلوزن النوخت ذي السبع وحدات الممارس في تركيا والبلاج العربية كذلك (فاعلاتن) من الرمل وتقابل وزن "الدور هندي" وهو متداول في البلدين المذكورين وكلا الوزنين تركزا في بلدان البلقان وما هو مترتبط بالاوزان القديمة وما كان نتيجة الممارسات والبحاث والتجارب التي اجريت بالخصوص في تركيا على عهد السلطان العثمان سلم الثالث (1761 - 1808 م) الذي كان فنانا ممارسا وله مؤلفات موسيقية معروفة حتى الآن وله دور كبير في تطوير الموسيقى بتركيا والاقطار التابعة لها انذاك بتشجيعاته على انتاج مقامات وايقاعات جديدة .

وقد توسعت الدوائر الايقاعية ابتداء من تلك الفترة ووصلت فيما جمع لدى المؤتمر الأول للموسيقى العربية المنعقد بالقاهرة سنة 1932 وحضره باحثون اجلاء من اقطار اسلامية وغيرها الى أصول (1) ضرب فتح مما قدمه " البارون ديرلانجي " وكذلك الشيخ على الدرويش عن سوريا وتشتمل دائرته على 176 وحدة زمانية وايقاع الشبر مما قدمه الوفد المصري وهو ذو ثمانية واربعين وحدة زمانية .

طريقة : حاولت في احدى الفترات البحث عن أصل كل ايقاع ومن ذلد الايقاع التركي الاصل والمستعلم في أغلب الأقطار الإسلامية تحت اسم "اقصاق" وهو ذو تسع وحدات صغيرة وإذا الصدفة تعطيني الجواب المقنع ذلك اني شاركت سنة 1964 في ملتقى لموسيقى البحر الابيض المتوسط باسطنبول اشرف عليه صديقنا الاستاذ عدنان سيقون وزنا بالمناسبة مدينة ازمير فصحاني في الصباح الباكر طائر زكز "زقزقته على ايقاع الاقصاق المذكور .

التعبير عن اصوات وحركات الايقاع

لقد عبر الكندي عن مختلف الايقاعات بعدد النقرات والتفعيلات الخيلية وكان يقول في بيان ايقاع الماخوري مثلا نقرتان متواليتان ونقرة منفردة على وزن "فعلان" وتبعه في ذلك ابو نصر الفارابي، واما صفي الدين الازموي فقد عبر بطريقة اكثر وضوحا عن الاسباب الاثقال بـ(تن) بتحريك الحرفين وعن الاسباب الخفاف بـ(تن) بفتح التاء وسكون النون كما عبر عن الاوتاد بـ(تنن) بتحريكها جميعا.

وعوض الباحث التونسي محمود سياله حرف التاء باللام فصارت الاسباب "لن" والوتاد "لنن" ومنذ القرن الماضي اصبح التعبير عن نقرات الايقاع بكلمات "دم" للنفرة القوية و"تك" للخفية و"كه" لما هي اخف وقد زدنا على ذلك كلمات "دف" و"طق" و"طرق" للطبل الكبير و"دج" للدف الموتر و"تش" للرق او الطار وكذلك للصنوج وتمكن الزياجة في هذه الكلمات بتطور النقر وتطور آلات الايقاع .

وفي خصوص الاشكال الموسيقية والغنائية فيعد الحداء الذي يؤديه الحادي المصاحب لقوافل التجار في رحلتي الشتاء والصيف اللتين تحدث عنهما القرآن الكريم في سورة قريش وبعد الصوت ضبط سلام مقاماته (1) ابو الفرج الصفهاني في كتابه "الاعاني وبعد الانواع الشعبية للغناء المنتشرة بكل الاقطار الاسلامية وبعد مختلف انواع الغناء والعزف على الآلات الموسيقية ذوات الطابع المرتجل فأول وثيقة عن قواعد التلحين المضبط ذي الطابع التقليدي اتينا من مدينة قرطبة من الأندلس على يد الموسيقار علي بن نافع الملقب بزرياب في القرن الثالث الهجري التاسع ميلادي وقد قنن له طريقة خاصة تتمثل في الافتتاح بالنشيد أول شذوه يليه ما كان على وزن البسيط ويختم بالمحركات حسبما ورد في كتاب نفع الطيب للمقري وقد كانت هذه الطريقة اساس التراكيب الموسيقية الغنائية بمختلف الاقطار الاسلامية وغيرها من ذلك "النوبة" .

المغربية الاندلسية والواقعة في المشرق العربي والفاصل بتركيا والشش مقام بجمهورات آسيا الوسطى الى منطقة "سنديان" التركية بالصين بما اشتملت عليه من موشحات وازجال ومعزوفات سواء كانت "بشارف" وسماعيات ولنقات "من اصل تركي او توجهات موشحات ومصدرات من اصل اندلسي ومغربي وقد شاعت طريقة زرياب هذه على الغرب بواسطة المغنيين المعروفين "بالتروبادور" و"التروفار" الذين انبتقوا من جنوب فرنسا وتبنتها الموسيقى الكلاسيكية في مختلف اشكالها فيما بعد .

وقد كان لزرياب افضال عديدة على ثقافة الحضارة الاسلامية : فهو علون عن ابتكار اسس التأليف الموسيقي والتلحين فهو مطور آلة العود باضافة الوتر الخاص له وجعل عزه بمضراب

من قوادم ريش النسر وقد تنبى الغربيون هذه الطريقة ونقلوها الى آله الكلافس وهي مستعملة لديهم كذلك حتى الآن وزرياب هو أول متبكر لاختبار اصوات المغنين وتدريبهم على النطق الصحيح مع باع كبير في تخليط العطورات واختراع الاطعمة والحلويات وتنوع ملابس الشبان والفتيات حسب فصول السنة . وقد كان بذلك الفنان الكامل الذي ترك لنا تراثا متداولاً حتى الآن .

وقد كان للطرق الصوفية دور كبير في الحفاظ على التراث الموسيقي للحضارة الاسلامية ولولاها لا ندثر هذا التراث بسبب ما اصب حضارتنا من تزلزلت ضيق ظهر في فترات عديدة من تاريخنا وقد كان الحفاظ عليه بالعمل على تغيير كلمات الموشحات والاغاني باخرى اعتمدت التوحيد بالله سبحانه وتعالى ومدح الرسول الاعظم عليه الصلاة والسلام طاره"بايران وينسب اليه مقام معروف باسمه وهو المشهور في البلدان الاخرى بالمحير ومولانا جلال الدين الرومي وهو صاحب الفضل على الموسيقى التركية التي تجاوزت الحدود وشعت على العديد من الاقطار الاسلامية ويوجد بضريحه اهم متحف لآلة الناي .

والشيخ عبد القادر الكيلاني أصيل بغداد والشيخ أبو الحسن الشاذلي الذي شح على المغرب الغربي ومصر والشيخ عبد السلام الاسمر الذي عمت طريقته الجماهيرية الليبية وتونس حيث اشتركت مع الطريقة العروسية نسبة الى الشيخ أحمد بن عروس والشيخ عبد الرحمان الثعالبي بالجزائر والشيخ محمد بن عيسى بالمغرب وغيرهم كثير

فقد جعلون الغناء وسيلة يجلبون بها الشبان للدخول في حلقات القرآن الكريم وتعلم الفقه وقد كان للطرق المغاربية دور هام في دخول الاسلام الى افريقيا السمراء حيث كان مريدو هذه الطرق يعوضون في الادخال الافريقية فيشترون منها الاطفال ويأتون بهم الى المدارس التابعة لطرقهم الصوفية حيث يتعلمون القرآن الكريم واركان الدين الحنيفة مع القراءة والكتابة بالعربية ثم يعتقدونهم ويرجعونهم الى أهليهم كما سجل التاريخ الحجيث مشاركة عدد هام من الطرق الصوفية في الكفاح ضد المستعمرين الغاصبين مع وجود قلة منهم كان يعتمد عليهم الاستعمار وفي كل الفئات الصالح والطالح .

الترقيم الموسيقي

ان اقدم المحاولات للترقيم الموسيقى كانت تلك التي سجلها ابو الفرج الاصفهاني في كتابه الاغاني وركزها على عدد من الرموز لبيان الدرجات الصوتية ابتداء من وضع اصابع اليد اليسر على اوتار العود الاربعة (البم والمثلث وامثى وازير) وهي كما يلي :

1- مطلق في مجرى الوسطى

2- مطلق في مجرى البنصر

3- سبابه في مجرى الوسطى

4- سبابه في مجرى البنصر

5- وسطى في مجراها

6- بنصر في مجراها

7- خنصر في مجرى الوسطى

8- خنصر في مجرى البنصر

وقد قمنا كما قام الزميلان الاستاذان الحاج هاشم الرجب من بغداد ويوسف شوقي من القاهرة بحل هذه الروموز وهي لا تتعدى بيان سلم المقام الذي عليه الصوت لا غير وقد تقدمت طريقة الترقيم مع صفي الدين الرموي في القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي الذي قدم طريقة في الترقيم الموسيقى في كتابة "الادوار" الذي نملك صورة من مخطوطه من مكتبة مدينة "باكو" عاصمة اذربيجان بخط على بن فتح الله المعاد الصفهاني المعروف بصائر "وترتكز هذه الطريقة على اعطاء العشرة أحرف الابدجية الاولى الى مواضع ضغط الاصابع على الاوتار وهي : أ-ب-ج-د-ه-و-ز-ح-ط-ي واذا ارتفع الصوت أكثر من ذلك اعادة نفس الحروف مع اضافة الحرف العاشر لها ورد قبلها بحيث تصبح يا - يب-يج-يديه-يز-يح - يط-واذا زاد السلسلة ارتفاعا أضيف لها الحرف الحادث عش وهو الكاف عوض الياء فتصبح : كا-كب-كج-ك-كه-كز-كح-كط وذا تجاوز ذلك انتقلنا الى اضافة الحرف الثاني عشر وهو اللام وهكذا دواليك.

وهي طريقة وان كانت أكمل من طريقة ابي الفرج الاصفهاني ولكنها غير مقتنعة وهذا ما جعل سلاطين آل عثمان يحثون رعاياهم من الفناني على محالو التكار طرق اخرى للكتابة الموسيقية فظه من بينهم الامير الروماني "كنمير" في القرن السابع عشر ثم تذكر للعثمانيين رغم ما غدقوه عليه .

وانضم لجيوش الروس الاعاء كما برز في القرن الثامن عشر فنان تركي يدعى "انبرسوم"

بطريقة جديدة في كتابة الموسيقى تبناه شيوخ الفن الاتراك الى أواخر القرن الماضي حيث
اعتمدنا جميعا الكتابة الغربية المعروفة حتى الان وقد اضاف لها الفنانون من تركيا وايران والبلاد
العربية علامات تمكن من التعري على كل جزئيات موسيقى الحضارة الاسلامية
ان الحديث عن موسيقى الحضارة الاسلامية متسع الارزاء ولا يكفي له تحديد عدد من
الصفحات وعلى كل فهذه مقدمة نرجو ان تفسح المجال أمام شبابنا الدارسي بالجامعات والمعاهد
الموسيقية العليا ليشبعوها بحثا حتى يحصل لهم شرف المساهمة في الحفاظ على تراثنا الاسلامي
الزاخر ويعملوا على انمائه واثرائه والله الموفق.

والسلام